هل إبن أبي الحديد شارح نهج البلاغة شيعي؟

الشيخ أحمد سلمان

كما ذكرنا سابقاً حاول بعض المعاصرين إلصاق التشيّع بابن أبي الحديد ، ولعل أول من نسب إليه ذلك هو ابن كثير، حيث قال في (البداية والنهاية) : عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين أبو حامد بن أبي الحديد عز الدين المدائني، الكاتب الشاعر المطبق الشيعي الغالي، له شرح (نهج البلاغة) في عشرين مجلداً، وُلد بالمدائن سنة ست وثمانين وخمسمائة ، ثم صار إلى بغداد ، فكان أحد الكُتّاب والشعراء بالديوان الخليفي ، وكان حظيًا عند الوزير ابن العلقمي، لما بينهما من المناسبة والمقاربة والمشابهة في التشيّع والأدب والفضيلة , وقد أورد له إبن الساعي أشياء كثيرة من مدائحه وأشعاره الفائقة الرائقة وكان أكثر فضيلة وأدباً من أخيه أبي المعالي موفق الدين بن هبة الله ، وإن كان الآخر فاضلاً بارعاً أيضاً ، وقد ماتا في هذه السنة رحمهما الله تعالى [١] .

وكلام ابن كثير مردود من عدة وجوه نوردها تباعاً :

الأول : لم يأت ابن كثير بدليل على مدَّعاه ، بل غاية ما ساقه هو علاقة ابن أبي الحديد بابن العلقمي الشيعي، ولعمري متى كانت صحبة الشيعي تدل على التشيّع، فإن كان الأمر كذلك فيجب على ابن كثير الحكم بتسنن ابن العلقمي؛ لأن هذا الرجل كان من المقرَّبين من خلفاء بني العباس الذين أجمع الكلّ أنهم كانوا على غير مذهب الشيعة.

الثاني : أن ابن كثير قد انفرد بهذه الدعوى، وإلا فكل من ترجم لابن أبي الحديد قبل ابن كثير نسبه للاعتزال، ويكفينا في هذا الصدد ذكر كلام الذهبي الذي يعتبر أكثر تضلّعا في التاريخ منه، فقد قال في (سير أعلام النبلاء) في ترجمة الموفق أخي إبن أبي الحديد : مات في وسط سنة ست وخمسين، فرثاه أخوه عز الدين عبد الحميد ، ثم مات بعده بقليل في العام، وكانا من كبار الفضلاء وأرباب الكلام والنظم والنثر والبلاغة ،والموفق أحسنهما عقيدة ، فإن العز معتزلي ،أجارنا الله [٢] .

الثالث: الطريق الصحيح لمعرفة عقيدة الشخص هو البحث في كلماته، فهو أعلم بنفسه من غيره، ومن استقرأ تصريحات ابن أبي الحديد جزم يقيناً أنه معتزلي حتى النخاع ، بل مغالٍ في الاعتزال.

فقد قال في مقدمة شرحه على النهج : وقدَّم المفضول على الأفضل لمصلحة اقتضاها التكليف ، واختص الأفضل من جلائل المآثر ونفائس المفاخر بما يعظم عن التشبيه ، ويجل عن التكييف [٣] .

وهو الذي يقول في أول الكتاب تحت باب أسماه : (القول فيما يذهب إليه أصحابنا المعتزلة في الإمامة والتفضيل والبغاة والخوارج): اتفق شيوخنا كافة رحمهم الله المتقدَّمون منهم والمتأخرون ، والبصريون والبغداديون ، على أن بيعة أبي بكر الصدِّيق بيعة صحيحة شرعية ، وأنها لم تكن عن نصٍ ،وإنما كانت بالاختيارالذي ثبت بالإجماع وبغير الإجماع كونه طريق إلى الإمامة [٤] .

وهذا الكلام نصّ منه في كونه معتزليًا، ولا أظن عاقلاً يقول أن شيعيًا يعتقد بصحة بيعة الأول ويسمّيه بالصدِّيق!

وهو الذي يقول أيضاً : وتزعم الشيعة أنه خوطب في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأمير المؤمنين ، خاطبه بذلك جلة المهاجرين والأنصار، ولم يثبت ذلك في اخبار المحدِّثين، إلا أنهم قد رووا ما يعطي هذا المعنى وإن لم يكن اللفظ بعينه [٥] .

وقد قال عند حديثه عن مولد أمير المؤمنين عليه السلام :واختلف في مولد علي عليه السلام أين كان؟فكثيرمن الشيعة يزعمون أنه ولد في الكعبة، والمحدِّثون لا يعترفون بذلك ،ويزعمون أن المولود في الكعبة حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي [٦] .

وقال عند شرحه الخطبة الشقشقية : أما الإمامية من الشيعة فتجري هذه الألفاظ على ظواهرها ، وتذهب إلى أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم نصّ على أمير المؤمنين عليه السلام، وأنّه غُصِبَ حقّه، وأما أصحابنا رحمهم الله فلهم أن يقولوا... [٧]

فها هو يأتي بآراء مسلّمة للشيعة لا يختلفون فيها ، ويردّها ، ويتبنى آراء المعتزلة فيها، فأي دليل أوضح من هذا؟

بل إنه كثيراً ما يطعن في الشيعة بطعون عظيمة، ومن ذلك قوله : وأعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة، فإنهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلفة في صاحبهم ، حملهم على وضعها عداوة خصومهم، نحو حديث (السطل) ، وحديث (الرمانة)، وحديث غزوة البئر التي كان فيها الشياطين ، وتُعْرَف كما زعموا (بذات العلم)، وحديث غسل سلمان الفارسي، وطي الأرض، وحديث الجمجمة ، ونحو ذلك [٨] .

والنتيجة أن كل من اطلع على كلمات علماء الشيعة يرى أنهم جازمون بأن ابن أبي الحديد لم يكن شيعيًّا ، وسنورد بعض الكلمات التي تكفي لدفع هذا التوهم :

الشيخ الحر العاملي رحمه الله : قال في كتابه (الجواهر السنية) : وروى الشيخ العالم عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي أصولاً الحنفي فروعاً في كتابه شرح (نهج البلاغة) عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم... [٩] .

الشيخ يوسف البحراني رحمه الله : صنّف كتاباً أسماه (سلاسل الحديد في تقييد ابن أبي الحديد) ، تعرض فيه على الموارد التي ردَّ فيها ابن أبي الحديد على الشيعة، ونقض عليه بردود قوية وبعبارات قاسية، منها قوله : فانظر إلى هذا الشارح الضال التايه في أودية الضلالة كيف يدَّعي في غير مقام ما تقدَّم أن عثمان من أهل الجنة، ومن جملة العشرة المبشرة، وينقل هنا عن عمار مثل هذا الكلام المنادي عليه بالدمار ، وقد عرفت آنفاً ما نقلوه في حق عمار من الأخبار [١٠] .

وقال في مورد آخر: إن الشيعة بحمد الله تعالى لكونهم على الحق الواضح المبين، قد أوضح الله لهم الحجة على ألسنة المخالفين ، كما سيظهر لك من أخباره المنقولة، وليته كان مع نقله لهذه الأخبار يميّز فيها بين الغث والسمين ، والعاطل والثمين ، ويجري فيها على جادة الإنصاف ، ويتجنَّب الضلال والاعتساف، ولكنه يغمض عينه عما اشتملت عليه من المناكير الظاهر عاراً وشناراً المعلنة بالقدح في أئمته جهاراً، فمثله كمثل الحمار يحمل أسفاراً [١١].

السيد هاشم البحراني رحمه الله: ألّف كتاباً أسماه (سلاسل الحديد في تقييد أهل التقليد) ردّ على جملة من الأمور التي ذكرها ابن أبي الحديد في شرحه على نهج البلاغة ، ونسبه في أكثر من مورد إلى التعصب والعناد.

منها قوله : وهذا الحمل أبعد ابن أبي الحديد عن الحق كبعد ما بين السماء إلى الأرض، إذ لا موجب لهذا الحمل إلا التعصب والحمية المذهبية للمذهب الاعتزالي، إذ لا كتاب ولا سُنّة ، ولا إجماع على صحّة حمله ، بل من نظر في شرحه للنهج رأى الحق عياناً لأمير المؤمنين عليه السلام بالبراهين القطعية التي ذكرها في الشرح ، كما ستقف عليه إن شاء الله؛وإنما ذكرت هذا الفصل لئلا يظن ظان أن ابن أبي الحديد إمامي المذهب إذا رأى ما نقلناه عنه في الشرح، مما ذكره في النصوص الدالة أن عليًّا عليه السلام أمير المؤمنين هو الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومما ذكره في فضله عليه السلام وفضل أهل البيت عليهم السلام ، وذكره روايات على الطعن على من تقدم على أمير المؤمنين علي بن

أبي طالب عليه السلام وأتباعهم كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى ،فهو معتزلي المذهب لا شك في ذلك ولا ريب، ومن لاحظ شرحه رأى ذلك عياناً [١٢].

ومنها قوله : ما يكفي ابن أبي الحديد وأصحابه ما ذكره ورواه في منازعة أمير المؤمنين عليه السلام وتظلّمه ، وغير ذلك مما ذكره ابن أبي الحديد ها هنا سابقاً، حيث قال: فإن هذا الخبر وغيره من الأخبار المستفيضة تدل على أنه قد كاشفهم ، وهتك القناع بينه وبينهم ، إلى آخر ما تقدم من كلامه، فكيف يقول عقيب هذا الحديث الأخير من قول شيوخه البغداديين أن الإمامة كانت لعلي عليه السلام إن رغب فيها ونازع عليها ، فأي رغبة أظهر وأبين وأعظم مما ظهرت في هذا الحديث لمن تأمّله بأدنى تأمّل، وهل هذا إلا تعصب من ابن أبي الحديد على مذهبه الاعتزالي ، واعترافه بالحق وإنكاره إياه، فماذا بعد الحق إلا الضلال [١٣] .

الشيخ محمد طه نجف رحمه الله قال : لو أوقف خصوم أمير المؤمنين عليه السلام بين يدي الله ما استطاعوا أن يعتذروا عن أنفسهم كما اعتذر عنهم ابن أبي الحديد [١٤].

السيد عبد الزهراء الخطيب رحمه الله قال : هذا ويعد ابن أبي الحديد من خصوم الشيعة وأشد مناوئيهم رغم ما يُظهر من حبّه لعلي عليه السلام وإظهار تفضيله [١٥].

فبعد هذه الأقوال المتضافرة ، هل هناك من يجرؤ ويقول : إن ابن أبي الحديد المعتزلي من الشيعة الإمامية؟! ولكن ربما يورد هنا علينا إشكال: وهو أن بعض علماء الشيعة قد صرّحوا بأنّ هذا الرجل من الشيعة، مثل آغا بزرك الطهراني [١٦]، والسيد الخونساري [١٧]، والمجلسي الأول [١٨]، وغيرهم.

والجواب : أن كل هؤلاء لم يثبتوا أن ابن أبي الحديد كان شيعيًّا بالمعنى الأخص ، أي أنه من الشيعة الإمامية ، بل أثبتوا له التشيّع بالمعنى الأعم، وهو محبّة أميرالمؤمنين عليه السلام، وتقديمه على من سبقه من الحُكّام.

وهذه الصفة قد أطلقها جملة من علماء العامة على بعض الصحابة والتابعين وأئمة الحديث.

منهم : الصحابي الجليل أبوالطفيل, قال الذهبي فيه : واسم أبي الطفيل : عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمرو الليثي الكناني الحجازي الشيعي، كان من شيعة الإمام علي، مولده بعد الهجرة، رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في حجة الوداع وهو يستلم الركن بمحجنه ، ثم يقبل المحجن [١٩] .

بل قيل فيه : إن البخاري ترك حديثه لإفراطه في التشيع كما ذكر ذلك الخطيب البغدادي، حيث قال : وسُئل لم ترك البخاري حديث أبي الطفيل عامر بن واثلة؟ قال : لأنه كان يفرط في التشيّع [٢٠].

ومنهم : الصحابي الجليل حجر بن عدي حيث نصَّ الذهبي على تشيّعه، فقال : وكان شريفاً ، أميراً ، مطاعاً ، أمَّاراً بالمعروف، مقدماً على الإنكار، من شيعة علي ، شهد صفين أميراً، وكان ذا صلاح وتعبّد [٢١].

ومنهم : أبوالأسود الدؤلي , فقد قال فيه الذهبي : قاتل أبوالأسود يوم الجمل مع علي بن أبي طالب ، وكان من وجوه الشيعة ، ومن أكملهم عقلاً ورأياً [٢٢] .

ومنهم : الحافظ النسائي, قال الذهبي في السير: ولم يكن أحد في رأس الثلاث مئة أحفظ من النسائي، هو أحذق بالحديث وعلله ورجاله من مسلم ومن أبي داود، ومن أبي عيسى ، وهو جار في مضمار البخاري، وأبي زرعة، إلا أن فيه قليل تشيع، وانحراف عن خصوم الإمام علي، كمعاوية وعمرو، والله يسامحه [٢٣].

ومنهم : الحاكم النيسابوري, قال الذهبي في السير ,عن ابن طاهر : أنه سأل أبا إسماعيل عبد الله بن محمد الهروي ، عن أبي عبد الله الحاكم ، فقال : ثقة في الحديث، رافضي خبيث؛ قلت – أي الذهبي - : كلا ليس هو رافضيًّا ، بلى يتشيع [٢٤].

والأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا من كتب المخالفين، وقد أتقن المجلسي الأول قدِس سره وصفه حين نسبه إلى فرقة التفضيلية [٢٥] ، أي غاية ما عندهم من التشيّع هو تفضيل أمير المؤمنين عليه السلام على غيره من الصحابة.

وهذا ما يجعلنا نجزم ونقطع أن نسبة الرجل إلى التشيع ليست إلا محاولة من الخصوم للتهرّب من إلزامهم بكلامه.

القيمة العلمية لشرح ابن أبي الحديد :

يعتبر شرح ابن أبي الحديد المعتزلي من أشهر شروح النهج وأكثرها تداولاً بين الناس، ولهذا الشرح عدة إيجابيات نذكر منها :

الأول : أن صاحب هذا الشرح ليس بشيعي المذهب كما بيّنا في البحث السابق، وهذا يدل على ما تبوأه كتاب (نهج البلاغة) من المكانة المهمة بين المسلمين باختلاف مذاهبهم ، حيث تعاهدوه بالرعاية والعناية والشرح.

الثاني : اجتهد هذا الرجل في نقل كثيرمن الحوادث التاريخية المهمة التي أغفلها غيره، حتّى عدّ كتابه موسوعة كاملة أرّخت تلك الفترة الزمنية التي تبدأ من فجر الإسلام إلى سقوط الدولة العباسية ودخول التتار إلى بغداد، مما يجعل من الكتاب مرجعاً مهمًّا جدًّا ، خصوصاً مع قدمه الزمني ومعاصرته لبعض الأحداث المهمّة.

الثالث : ضمّن ابن أبي الحديد في شرحه بعض المتون المهمة والكتب المفقودة في عصرنا الحالي، ككتاب (السقيفة) لأحمد بن عبد العزيز الجوهري، وكتاب (وقعة الجمل) لأبي مخنف، وأجزاء غيرموجودة من كتاب (الموفقيات) للزبير بن بكار، وغيرها من المتون التاريخية المهمة.

الرابع : هذا الرجل يعتبر من الأدباء المتضلعين في اللغة والشعر ، وقد استغل هذا الجانب في إبراز عظمة(نهج البلاغة)، وإظهار الجانب الجمالي في عبارات أميرالمؤمنين عليه السلام ، التي هي بحق : دون كلام الخالق، فوق كلام المخلوقين.

الخامس : طرح المصنف أهم الآراء الاعتزالية في شرحه على النهج، وناقش الشيعة الإمامية، لاسيما القطب الراوندي رحمه الله ، مما خلق سجالاً علميًّا لطيفاً أثرى الساحتين، فمن يتصفح شرحه يجد مناقشة لعقيدة الشيعة في الصفات وعقيدتهم في الإمامة ، ونقداً لقراءتهم لبعض الأحداث التاريخية.

---

[١] . البداية والنهاية ١٣/٢٣٣.

[٢] . سير اعلام النبلاء ٢٣/٢٧٥.

[٣] . شرح النهج ١/١٩.

[٤] . شرح النهج ١/٢٢.

[٥] . نفس المصدر ١/٢٦.

[٦] . نفس المصدر ١/٢٨.

[٧] . نفس المصدر ١/١١٦.

[٨] . نفس المصدر ١١/٤٩.

[٩] . الجواهر السنية ٣٠٦.

[١٠] . سلاسل الحديد ٢/٦.

[١١] . سلاسل الحديد ٢/٣٠٣.

[١٢] . سلاسل الحديد: ٩٢.

[١٣] . نفس المصدر: ٢٢١.

[١٤] . مصادر نهج البلاغة وأسانيده ١/٢١٧.

[١٥] . مصادر نهج البلاغة وأسانيده ١/٢١٧.

[١٦] . الذريعة ٩/٦٨٥.

[١٧] . روضات الجنات ٥/٢٠.

[١٨] . روضة المتقين ٢/٤٩٨.

[١٩] . سير أعلام النبلاء ٣/٤٦٨.

[٢٠] . الكفاية في علم الرواية : ١٥٩.

[٢١] . سير أعلام النبلاء ٣/٤٦٣.

[٢٢] . نفس المصدر ٤/٨٢.

[٢٣] . نفس المصدر ١٤/١٣٣.

[٢٤] . نفس المصدر ١٧/١٧٤.

[٢٥] . روضة المتقين ٢/٤٩٨.